المعنى في (بطـ) الشاعر!!

شاع على الألسنة عند التوقف أمام بيت شعري غامض قولهم :" المعنى في بطن الشاعر"!! أي في عقله ، وذهنه ، ولكن المعنى في القصة التالية في " بطن " الشاعر الحقيقية : أي في معدته !! ويمكن أن نقول إن المعنى في القصة في " بط " الشاعر الكبير الدمياطي محمد مصطفى الماحي (١٨٩٥-١٩٧٦) .

فحين صدر " ديوان الماحي " في طبعته الثالثة عام ١٩٦٩م [وكانت الطبعة الأولى منه قد صدرت عام ١٩٣٤ في العام ذاته الذي صدر فيه أول ديوان لكل من إبراهيم ناجي وعلى محمود طه ثم صدرت الطبعة الثانية من ديوان الماحي عام ١٩٥٧م] . احتفلت به الأوساط الأدبية في مصر ، وأقيمت عدة ندوات حول هذا الديوان في دار " جمعية الشبان المسلمين " بالقاهرة ، وفي دار " جمعية الشبان المسيحية " وفي دار " جمعية الأدباء " ، وفي دار " الرابطة الإسلامية " ورابطة الأدب الحديث وغيرها .

وفي إحدى هذه الندوات ألقى الشاعر الفكه عبد السلام شهاب قصيدة متميزة ، غمز فيها الشاعر الماحي غمزتين فكاهيتين ، أولاهما حين تحدث عن حجم الديوان الضخم فقال :

ديوان " الماحي " الدمياطي ... سبحان الوهاب العاطي

أرأيتم دفتر تليفونٍ ... " معبوطاً " أو " تحت الباطِ "؟

ثم انتقل إلى الغمزة الثانية ليصنع منها المفارقة ، فهذا الشاعر الذي أنتج ديواناً بهذا الحجم الضخم الذي جعله أشبه بدليل التليفونات هو من أهل دمياط المعروفين بين المصريين بشدة حرصهم – أو بخلهم – فيقول شهاب :

هو من دمياط – لا عجب !!- يـــزن الـــدنيا بـــالقيراطِ

والـــــدمياطي بفطرتـــــه " لقَّـــاط " القـــرش بملقـــاط

ومع أنه من بلد معروف أهلها بشدة حرصهم ، وجمعهم المال والحفاظ عليه فإنه رجل كريم ، سمح ، يستمتع أصحابه إذا كانوا ضيوفاً عليه بما يأكلون وما يشربون :

واســـأل مـــن زاروا منزلـــه عـــن ألـــف ســـماطٍ وســـماطِ

فلبســـتان المـــاحي صـــيتٌ في جمـــع الـــبط " الزغـــاطي"

وبالرغم من أن عبد السلام شهاب – فيما يبدو بعد ذلك من المعركة – لم يكن قد زار الماحي ولا ذاق طعم بطه ولا طعامه ، فإن حيلته قد نجحت ، وانطلت على الشعراء حاضري الندوة.

وكان الشاعر محمود غنيم واحداً من أبرز شعراء الفكاهة والمساجلات الإخوانية ، وكان مشغوفاً بالدخول في معارك " البطون " بصفة خاصة كما نرى في قصائده عن العدس الأباظي ، ولحوم الخراف ، والديوك . . وغيرها مما نجده في ديوانه .

وبعد انتهاء الندوة كتب محمود غنيم إلى صديقه الماحي يعاتبه لأن عنده مزرعة بط وأطعم منها عبد السلام شهاب وغيره من أصحابه ولم يدع غنيماً معهم مع شدة ما يرى من الغلاء الفاحش الذي يفتك بالناس ، فقال يخاطب الماحي :

قد سمعنا عن بطكم ما سمعنا ... فأكلنا بالأذن حتى شبعنا

غير أن الأفواه تنطق همساً: ... ما عرفنا لذلك البط معنى!!

يا أبا مصطفى ، عليك سلامٌ ... أفيُرضيك أن شبعتَ وجُعْنا؟

وسع الناس كلهم بطك النا ... ضِج دُهناً ، لكنه لم يسعنا

جُدْ علينا ولو بطيف جناح ... لا تَدَعْنا نشكو الطوى،لا تدعنا!

نحن في عهد أزمة وغلاءٍ ... قد رهنَّا فيه المتاع وبعنا

نحن قوم لنا العفاف شعارٌ ... إن سُقينا حِسَاءَ بط قنعنا

وإذا نالنا كريم بإحسا ... نٍ ، شكرنَا صنيعه وأذعنا

ونذيق البخيل هَجْواً وبيلاً ... مِثل حدِّ السلاح ضرباً وطعنا

صاح،لا عذر بعد هذا،فقُلْ لي: ... قد سمعنا ما قلتَه وأطعنا

وحين وصلت أبيات محمود غنيم إلى الشاعر الماحي ، أدرك أنه خاسر لا محالة ، فإما أن يدعو غنيماً وصحبه إلى وليمة ضخمة تجور على ثروته من البط وإما أن يستعد لقصائد الهجاء المقذعة فيخسر سمعته ومكانته الرفيعة بين أدباء عصره ، فلجأ إلى التحايل ورفع لواء المسكنة ، والتشكي من الغلاء والبلاء وسوء الحال ، وزعم أن عبد السلام شهاب لم يزره ولم يطعم عنده بطاً ولا دجاجاً ، وإنما

قال ما قال تحت وطأة الجوع ، وللجائع أن يحلم كيف شاء بما شاء فكتب إلى محمود غنيم يقول :

يا أخي ، يا غنيم ، رفقاً بحالي ... إن عبد السلام بات يُغالي
لا تصدق ما قاله ، يا صديقي ... إنه شاعر رحيب الخيالِ
لم يزرني ولم أزره ، ولكن ... هاجه الشوق للطعام الغالي
كان فيما مضى يُقدَّمُ بطٌّ ... ودجاجٌ مُحَمَّرٌ في المقالي
يوم كان الزمان سهلاً رخياً ... لا يمر الغلاء فيه ببالِ
فغدا البط والدجاج – كما تَعْـ ... ـلم – ضربين من ضروب المحالِ

ويبدو أن الماحي بعد أن كتب الأبيات السابقة خشي مما كان يعرفه من سلاطة لسان غنيم ، وتخيل ما ينتظره من سوء العاقبة إن لم تنطل على غنيم حيله السابقة، وشكاواه من الغلاء ، فأردف يدعوه دعوة رقيقة لا جزم فيها ولا تحديد موعد فقال :

غير أني – وقد تصوَّرتُ ما قا ... ل صحيحاً – أراه سهل المنالِ
لك عندي وللصديق شهاب ... أسمن البط في قريب الليالي
ولمن شئت من مُحبيك طُراً ... أنا والله لست بالبخَّال
فاقترح ، يا أخي – فديتك – يوماً ... واختبر – إن شككتَ – صدق مقالي

ومع ذلك فلم يسلم من لسان غنيم ، الذي أرسل إليه يسخر مما جاء في قصيدته من ادعاء للفقر ، وشكوى من الزمان ، مما كاد يدفع بمحمود غنيم إلى أن

يتبرع له بما يملك من قوت أولاده ، وسخر من دعوته التي جاءت في آخر أبياته لأنها دعوة مذبذبة لا حسم فيها ولا تأكيد ، فقد تلقى من محمود غنيم قصيدة حادة اتهمه فيها بالبخل ومحاولة التمسح بالغلاء، مع أن أصحابه لم يطلبوا منه ذبح عجل من الماشية ولا ذبح ناقة ولا جمل ، لكنهم لم يجمحوا بخيالهم الطامح لأكثر من ذبح بطة هزيلة جائعة، فلماذا يصر على دعوتهم بهذا القلب الهلوع ؟ وتلك النفس الوجلة ؟ فقال غنيم للماحي :

أيها الشاعر الرقيق الحال ... أنا لم أدرِ أن جيبك خالي
أنت قد بِتَّ تدَّعي الفقرَ حتى ... كِدتُ أهدي إليك قوت عيالي
ما طلبنا إليك ذبح فَصِيلِيْـ ... ـن ، وفحلين من فحول الجمالِ
بل طلبنا جناح أنثى من البط ... إلى الله تشتكي من هُزالِ
فعلام الأسى، وطول التشاكي ... والتباكي على الزمان الخالي؟
لستَ ممن يدعو الضيوف بقلبٍ ... بل بقول ممزقِ الأوصال
لست ممن يدعو بطرف قريرٍ ... بل بطرفٍ ذي مَدمَع سيَّال
مُومِئاً نحو باب دارك للضيـ ... ـف بيُمناك ، طارداً بالشِّمال
والكريم الكريم يدعو بقلبٍ ... ثابتٍ ثابتٍ ثبات الجبالِ

ثم بدأ غنيم في تنفيذ ما هدد به من هجاء مقذع ، فقال للماحي إنه ابن أصل لهذه المدينة التي اشتهرت بين المصريين بالحرص الشديد ، مع ما عرف من أنها بلد الأدباء والشعراء . ونفض محمود غنيم – بهذا الهجاء القومي – يده من

فكرة دعوته إلى أكلة من بط الماحي ، وليستعد الماحي بعد ذلك لجولات أخرى من الهجاء في كل مناسبة فقال غنيم :

يـا ابـن دميـاط ، إنّ دميـاط ... إن عـدّت بنيها تعدك ابن حلال !!
إن دميـاط مهـبط الشـعر ، لكـن ... هـي في الحـرص مضرـب الأمثـال
إن أنجالهـا كثـير ، ولكـن ... أنت ، يـا صاح ، أنجب الأنجال !!
بكرُهـا أنـت حكمـةً وبيانـاً ... وفتاهـا حرصـاً عـلى الأمـوال !!
صاح دعني من أكل بطك،دعني ... أوثـر الجـوع ؛ إن عِـرضيَ غـالي!

واستمرت المعركة سجالاً ، فرد الماحي مدافعاً عن نفسه ، متذرعاً بسوء الأحوال – مرة أخرى – والغلاء الفاحش ، واستغرب ألا يحس غنيم بوطأة هذا الغلاء لما حققه من ثراء وما جمعه من ثروة :

يـا صـديقي،لقد عهـدتك عـدلاً ... منصـفاً في المقـال والأفعـالِ
أنـا لا أشـتكي-كـما قلـتَ- فقـراً ... لا،ولا البخـل خصـلة مـن خصـالي
فلـم الجـور والتشـكك فـيما ... سُـقتَه باكيـاً لرقـة حـالي؟
فـيم نُكرانـك الغـلاءَ، وكـل الـ ... ـناس يشـكون مـن أذى مغتـالِ؟
فـإذا لم تحسـه، فهنيئـاً ... لـك مـا قـد جمعـت مـن أمـوالِ
أنـا عنـدي مـن القناعـة كَنـزٌ ... ومـن الله فضـله المتـوالي

ولم يجد الشاعر مصطفى الماحي بداً من الدفاع عن بلده (دمياط) فوصفها بأنها بلد الجد والاجتهاد والعمل ، وما شاع عنها إنما هو حقد من الآخرين عليها

لأنها تفرق تفريقا عميقا دقيقا بين " الحرص" بمعنى " الشطارة" أو الوعي الاقتصادي، وبين " البخل " بمعناه المذموم شرعاً وعرفاً. وعلى هذا الأساس من التفريق بينهما ،اضطر الماحي إلى تجديد دعوته إلى غنيم لكي يأتي – ومن شاء معه – إلى دمياط لتناول البط ليدرأ الماحي عن نفسه تهمة البخل :

إن دمياط ذات جد ، وقصدٍ لا لحرص، ولا لسوء فعالِ
تضع الحق في النصاب ولا تفـ ـعل فعل الأغفال والجُهالِ
هل أجاريك في دُعايتك الحر ى، وأنت المداعب المتغالي
لا، وحسبي أني أعود إلى دعـ ـوتك اليوم، صادقاً في سؤالي
مع من شئت من محبيك ، إني لا أماري، ولستُ بالبخَّال
فاقترح، يا أخي – فديتك- يوماً واختبر- إن شككت- صدق مقالي

ولما رأي محمود غنيم أن دعوة صاحبه الماحي لم تزد عن سابقتيها وما تزال دعوة هشة هزيلة مذبذبة كتب عشر مقطوعات ساخرة نال فيها من الماحي نيلاً عظيماً وجعل لكل منها عنواناً مستقلاً ، وهذه المقطوعات آية من آيات الإبداع الفني فيما تجلى فيها من خيال ودقة تصوير وتنوع في معاني السخرية اللاذعة وهي :

١- دون الوصال

بالله،يا ذات المُحيّا الضاحي قد طال بي ليلي، وأنت صباحي!
قالت: أتطمع في الوصال ودونه قُبَلُ النجوم وأكلُ بط الماحي؟

٢- ليلى المريضة في العراق

ويلاه،لـيلى بـالعراق مريضـة ... قـد أصَـبَحتْ في عـالم الأرواحِ!

كيـف السـبيل إلى الـدواء، وإنـما ... هـو دِرْهـمٌ مـن دهـن بـط المـاحي؟

٣- حامل الأوسمة

قال الصديق: لقد وصلتُ، فزينوا ... صـدري بـألفِ قـلادة ووشـاحِ

فسـألته: أوليـت عرشـاً؟ قـال: لا ... لكـن لمحـت خيـال بـط المـاحي !!

٤- مصارع الآساد

سـاءلته مـن أنـت؟ قـال: أنـا الـذي ... يـدري الكـماة المُعْلَمُـون كفـاحي

صـارعت آسـاد الشرى؛ فصرعتها ... لكـن عجـزت أمـام بـط المـاحي !!

٥- الفرسان الثلاثة

لـو أن "هانبيـال" جـاء محاربـاً ... في ألـف ألـف مـدجج بسـلاحِ

أو أن "نـابليون" عـاد، و "هتلـراً" ... لم ينجحـوا في غـزو بـط المـاحي !!

٦- المستحيلان

لا شيء في دنيـاك غـيرُ متـاح ... مـن يسـعَ، كُلِّـلَ سـعيُهُ بنجـاحِ

إلا طبيبـاً قـام يُحيـي ميتـاً ... أو طامعـاً في أكـل بـط المـاحي!

٧- في زحل

لمـا تكَشَّـفت النجـوم، وأفلحـوا ... في غزوهـا بـالعلم أيَّ فـلاحِ

سـاءلت عـن زُحـل: أفيـه خلائـقٌ؟ ... قـالوا: وجـدنا فيـه بـط المـاحي !!

٨- عفريت من الجن

أسمعت عن جن ابن داود الذي ... قد جاءه بالعرش فوق جناح؟

لو ظل يبحث ألف عامٍ كاملٍ ... لم يدر أين مكان بط الماحي!!

٩- محتضر يتمنى

شاهدت خِلِّي وهو يلفِظُ رُوحه ... فسألته: ما تشتهي يا صاحِ؟

فأجاب: أطلب من حبيبي قبلةً ... أو قطعةً من لحم بط الماحي !!

١٠- مهر الخطيبة

قال الخطيب: لقد فقدت خطيبتي ... وأطول حُزني بعدها ونواحي!!

كيف السبيل إلى الزواج، ومهرها ... هو ريشة من ريش بط الماحي؟

وقد أجاب الماحي على هذه الدعابات ملمحاً إلى ما جاء فيها بقوله :

يا أخي، يا غنيم سامحك الله! ... فما كنتُ يا أخي بالشَحاحِ

كم قصيد دبّجته كنت فيه ... مَثَلاً في براعة اللّمّاح

تحسب البط نعمة الله،حتى ... بِتّ ترضى بريشة من جناحِ

مرة تطلب الحساء، وأخرى ... تتغنّى بالبط في إفصاحِ

أتُرى: ليس في البسيطة شيءٌ ... يملأ البطنَ غير بط الماحي؟

إن ذكرت الغلاء يوماً تشككت، وبالغت في مقالة لاحي

ورفعتَ السياط حتى كأني ... جئت ذنباً فوق الرضا والسماح

ثم بدأ الماحي يجامل غنيماً ويشيد بأبياته في مقطوعاته ويجدد الدعوة له فقال واصفاً شعر محمود غنيم الساخر في تلك المقطوعات:

كم تأتي مستنفراً في حديث ... خَالِب للعقول والأرواح
في خيال مُجَنَح، وبيان ... أين منه بلاغة الوضّاح؟
صغت فيه ملاحماً وحِكايا ... ت تجلت في أجمل الأوضاحِ
ولقد كدتُ أحْرَنُ اليوم حتى ... أتلقى العِتاب كل صباحِ
فهو عتب مُحبّب بل نكاتٌ ... مُسكراتٌ للنفس مثل الراحِ
غير أني أعود ألمحُ ما يسـ ... ـفر عنه البيان من إلحاحِ
يا أخي إنني دعوتك فاقبلْ ... واطعم البط في هنا وانشراحِ
وأقترح يا أخي – فديتك- يوماً ... واختبر- إن شككت- صدق الماحي

وأخيراً دُبح البط؛ فقال الشاعر محمود غنيم شاكراً وذاكراً توقفه عن كتابة الشعر بعد أكل بط الماحي، ومهدداً بتجديد الهجاء إن لم تتجدد الدعوة إلى (عزومة) ثانية:

يقولون: ما للشعر غاض معينه ... وكنت تقول الشعر في البط محكماً؟
فقلت لهم: قد كان جوعي مُلهمي ... فلما أكلت البط؛ لم ألق مُلهما
فلا شكر للماحي إذا لم يُثنِّها ... فإن هو ثَنَّى كان أسخى وأكرما
وإلا فإنا قائلون لبطه: ... "إلى حيث ألقت رحلها أم قشعما"
وأهون من هذا لديّ: لو انني ... حفرت بظفري في الجنادل منجما

لـــه الله بطـــاً صِـــدته بقصـــائدٍ تكـاد تصـيد الـنجم مـن كبـد السـما!

وهكذا ، أثبتت لنا هذه المعركة الطريفة أن المعنى يكون أحياناً في " بطن " الشاعر بمعنى معدته، ويكون أحياناً في " بط " الشاعر . . إذا كان مثل شاعرنا الكبير محمد مصطفى الماحي رحمه الله !!